في سبيل الأزهر أيضاً

الصراحة لغة الحق

للأستاذ حامد عوني

لقد عودنا الأستاذ النابه صاحب الرسالة الغراء في مطالع رسالته المشرقة أن يميط لنا اللثام عن وجه الحقيقة، وأن يسمعنا من حين لآخر صيحة الحق في غير مواربة ولا مراءاة، وذلك ما دعاني أن أتقدم إليه بكلمة هي وليدة هذا المبدأ الكريم رجاء أن يفسح لها مكانها من رسالته كما فسح لغيرها من صيحات الحق وله بعد ذلك شكر الله والناس

* * *

كان العرب — وهم في جاهليتهم الجهلاء — قوماً شبوا في أحضان البداوة الجانحة، ونشأوا في كنف العيش الجاف والحياة الشاردة، وكانوا إلى ذلك لا يدينون بغير القول الصراح، واللفظ المحسور اللثام، لا يعرفون فيه زيفاً أو مراوغة، ولا في أدائه ليناً أو مهادنة حسبما تمليه عليهم طبيعة البادية، وتوحي به الشهامة العربية

وعلى هذا المنوال من القول نسج الإسلام رايته، وعلى غراره أدى رسالته، فعمت دعوته جميع الأرجاء

وهكذا كان القول الصريح في قديم العهد وحديثه مظهراً واضحاً في أكثر الأمر من مظاهر الحق، ومخباراً صحيحاً لصدق التعصبة له والذياد عنه، ودليلاً ناصعاً على قوة الإيمان به وفناء العقيدة فيه، ومحك صدق للبطولة والشهامة

ولكن — والأسف يحز في الأحشاء — درج أناس على أن يساوموا في الحق، وشبوا يستمرئون حياة المداراة والمصانعة؛ ويستسيغون مخزاة التواري عن وجه الحقيقة السافرة. فإذا ما استمدت الحقيقة أحدنا على المساومين فيها فأعداها، وأهابت به أن يتنافح عنها فأجابها؛ قالوا: هذا باطل من القول وزور، وقالوا: هذا دفع لم يقصد به وجه الحق، وقالوا: غير ذلك مما أوحت به حفائظ الصدور لا لسبب — شهد الله — سوى التجرد لمواجهة الواقع الملموس، والجهر بما لم نستطع الهمس به، والإقرار في صراحة بما أعوزتنا الشجاعة فيه

أإذا لم يتهيأ لنا — ونحن نعاني كمين الألم الصارخ — أن نضع أيدينا على الداء جزعنا أن نرى أحدنا يتوجع لنا، ويستصرخ الأساة لتضميد جراحنا. ومن ذا إذاً يرسل الآهة مدوية غير نفثة المصدور، وزفرة المكروب؟ وأي منا لم يقع في شرك هذا البلاء وتمنى الخلاص منه؟

ما كان لنا «علم الله» أن نستخذي أمام الحق ونتوارى عن الواقع المحس ما دمنا في البلية سواء

هذا لعمري موطن ضعف صحبنا منذ عهد بعيد. نحس بالألم ونتضور له ونحن مع ذلك نؤثر أن نستسلم للداء على أن نجأر بالشكاية منه والتخلص من شره. يا للعجب! متى نشجع فنثور على هذا الداء، ونطهر نفوسنا من أوضاره، ونكاشف العقول بويلاته فتتمكن يد الإصلاح من تعرف مواطن العلة فتضع الهناء مواضع النقب؟

قد يبدو لأحدنا أن في استقصاء بعض الداء وعرضه داعية للشماتة، ومثاراً للمتحفزين للوثبة، والقاعدين بكل مرصد؛ فنقول له: على هينتك. مرحباً بهذا الإشمات وأهلاً بهذه الإثارة؛ فكلاهما عامل من عوامل الإصلاح، وحافز من حوافز الأخذ بأسباب التقصي من العيب، والتبرى من النقص. وها هي ذي معاهد العلم في مختلف الممالك لن تجد من بينها ما لا يشكو من عيب في بعض نواحيه مهما سمت مناهج التعليم فيه

فليس من العيب إذاً أن نكشف عن أدوائنا بغية العمل على استئصالها أو تخفيف ويلاتها. إنما العيب والعار، بل ومن الخطر أن نرحب بالداء ونتحضن به ونطوي عليه كشحاً وهو لا يألونا عنتاً، ولا يني أن يسومنا إرهاقاً، وقد قالوا: «من كتم الطبيب داءه هلك»

وبعد، نخير لنا أن نكون صرحاء فيما نقول، أحراراً فيما نرى، نواصل في مواجهة الحقائق فلا نستخذي ولا نستبطن ولا نرائي